

المنكوبون من العلماء بالأندلس :

نكبة ابن رشد نموذجاً

د. جمعة شيخة

عنوان هذا البحث يتكوّن من ثلاث كلمات لها أهميّتها في ضبط حدود هذا البحث وأبعاده :

1- الكلمة الأولى المنكوبون : وتشمل كلّ من تعرّض إلى نكبة أو محنة أو بلاء أو رزية أو مأساة أو مصيبة. وتشترك كلّ هذه المفردات في معنى إلحاق الجهد والمشقة والأذى والألم بالإنسان، سواء أكان ذلك نفسياً أم جسدياً، أم نفسياً وجسدياً معاً، فيعيش المرء فترة من حياته قد تطول وقد تقصر في سدم وكرب وبثّ وكمد.

2- الكلمة الثّانية : العلماء لم نأخذ هذه الكلمة بمفهوم الاختصاص، ولكن أردناها جامعة لكلّ ما له نشاط أدبي أو فكريّ أو ديني أو فلسفي.

3- الكلمة الثّالثة : الأندلس : وهي شبه الجزيرة الإيبيرية التي بقي فيها العرب حوالي ثمانية قرون. ولم تكن هذه القرون الثّمانية فترات أمن وسلام كلّها، كما لم تكن كلّها عهود حرب واصطدام. وإنّما هي الحياة بأفراحها وأتراحها بسرّائها وضرّائها ولئن اهتمّ الباحثون خاصّةً بليالي الأندلس فاشبعوها درساً وتحليلاً، فقد كانت في فردوسنا المفقود ليالي بؤس أيضاً وقع إهمالها نسبياً وقمنا لسدّ هذه الثّغرة بدراسة حول الفتن

والحروب بالأندلس من القرن 11/5 إلى القرن 15/9 ⁽¹⁾ وتتبعناها في مصدر قلّما اعتمد عليه وهو الشّعر. فكان بحثنا هذا وصفاً لملمحة جماعية لا تخلو من مأس ونكبات.

أمّا هذه الدّراسة فانصبّت عنايتنا فيها بالأفراد. وهؤلاء يمثّلون نخبة المجتمع الأندلسي : سياسياً وفكرياً وعلمياً. ولقد بدا لنا أنّ في تتبّع ما تعرّضوا له من رزايا ومحن يمكن أن نفسر به - بوجه من الوجوه - أهمّ سبب من أسباب سقوط الأندلس، وهو جانب عادة ما وقع التّغافل عنه. فماهي أسباب هذه النّكبات؟ وما هي أنواعها؟ ومن الأفراد تعرّضوا لها واكتووا بلهيبها؟

لم يكن المعرّي مبالغاً في اللّزوميّات إذ سمّى هذه الحياة بدار العناء والشّقاء وكنّاها بأمّ دفر، فقد شاعت الإرادة الأزلية أن يتنقّل آدم وحواء من دار النّعيم إلى دار الشّقاء لخطيئة ارتكبت في الظّاهر ولحكمة إلهية في الحقيقة. وقامت الحياة الدّنيا منذ نزول آدم وحواء على ثنائية عجيبية هي سرّ الوجود وكنه الحياة بخيرها وشرّها، بحلوها ومرّها. وفي الإسلام جعل الله من البلاء اختباراً للمرء على قوّة عزيمته وعمق إيمانه، وأعطى أمثلة من حياة الرّسل والأنبياء، فقد تعرّضوا إلى شتى أنواع المحن فصبروا فكان ابتلاؤهم وصبرهم ضرباً من العناية الإلهية بهم. وكان بعض الصّالحين من هذه الأمّة يتحرّجون إذا طالت المدة ولم يصبهم الدّهر ببعض رزاياه، ويعتبرون ذلك نسياناً من الله لهم. ولذا تراهم يبتهجون ويستبشرون إذا نزل البلاء بأحدهم. وفي كتب الطّبقات الإفريقية والأندلسية أمثلة على ذلك في حياة العلماء والزّهاد والمتصوّفة. لكن يبقى عددهم قليلاً ويعتبر سلوكهم شاذّاً بالنّسبة إلى الأغلبية الساحقة من النّاس. لأنّ النّكبة مهما كان نوعها هي مبعث للألم. ومن عادة الإنسان أن يشكو للتعبير عن ألمه

(1) جمعة شيخة : الفنّ والحروب ط. تونس 1995 (3 أجزاء).

وللتخفيف عن نفسه ولذلك سعتني بالدرجة الأولى بمن نكب وترك لنا أثرا في نكبته أو نكب وتفاعل معه في محنته غيره، فوصفوا لنا نكبته فكانت تلك الآثار نبعا فياضا من أحاسيس النفس ومشاعرها وهي تعاتب وتستعطف، تشكو وتتألم تتدب وتتفجع فمن هم هؤلاء المنكوبون؟

I- أنواع المنكوبين :

إنّ المتتبع لتاريخ الأندلس خلال القرون الثمانية للتواجد العربي الإسلامي يرى أنّ من امتحن من أبنائها كثيرون وهم ينتمون إلى كلّ الطبقات في المجتمع الأندلسي من أعلى هرم السلطة والنّفوذ كالخليفة والأمير والحاجب⁽²⁾ والوزير، ومنهم كبار رجال الدولة كالقادة والولاة والقضاة. وهناك أعوان السلطان وصنائه كالكتّاب والشعراء. وينضاف إلى هؤلاء من جمح به طموحه لطلب السلطة من الثّائرين والمتآمرين إلى جانب هؤلاء ممّن اكتووا بلهيب السياسة من قريب أو بعيد نجد أصحاب الجرائم والجنايات. فما هي أسباب هذه النكبات؟

II- أسباب المحن : يمكن حصر هذه الأسباب فيما يلي :

1- الفتن والحروب: لقد كانت الفتن والحروب سببا في نكبات جماعية بالأندلس وخاصة عند حصار المدن وسقوطها عنوة. لكنّها كانت أيضا سببا في محن أفراد معينين. ومن أبرز المحن الفردية الناتجة عن الفتن محنة الأمير الشّاعر المعتمد بن عباد مع المرابطين، وعن الحروب محنة الشّاعر عبد الكريم القيسي مع النّصارى. ومن حسن الحظّ أنّ وصلنا ديوانا للشاعر السّجين والشّاعر الأسير، وفيهما مقطوعات من الشّعر الإنساني الخالد، فيها وصف لانكسار النّفس بعد مجدها، وذلك بعد عزّها،

(2) الحاجب في الأندلس هو الرّجل الثّاني في الدولة بعد الخليفة. وهو الواسطة بينه وبين وزرائه.

وشقائها بعد نعيمها. قال المعتمد وقد غار الأمل - في الخلاص - في لجة اليأس والقنوط (طويل)⁽³⁾ :

قَضَى وطراً من أهله كلّ نازح وكلّ يُداوي علةً في الجوارح
سِوَايَ فَإِنِّي رَهْنٌ أَذْهَمَ مَبْهَمٍ سبيلُ نجاتي أَخَذَ بالمبارح
ولم يبق أمامه إلّا كأس الدّلّ يتجرّعه حتّى الثّمالة. قال المعتمد يخاطب شاعره ابن اللبّانة، وقد عزم على الرّحيل بعد أن زاره في سجنه بأغमत (طويل)⁽⁴⁾ :

تسير إلى أرضٍ بها كنت مضغةً وفيها اكتست باللّحم منك عظامُ
وأبقى أسامُ الدّلّ في أرضٍ غربةً وما كنت لولا الغدر ذاك أسامُ

ويقدّم لنا ديوان القيسي صورة حقيقة عن ظروف الأسير المسلم في القرن 15/9 عند النصارى. وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذاباً مادياً ونفسياً متواصلاً (الكامل)⁽⁵⁾:

واحسرتي بعد اشتغالي بالعلو م ودرسهـا وتلاوة القرآن
أُمنسي وأصبح خادماً متصرّفاً لعبادة الأصنام والصلبان
وبغسل أقذار الكلاب تحرّقي في أكثر الأوقات والأزمان
وإذا المنامُ أردتُه ألفيته لعظيم خطبي طار من أجفاني

2- السياسة: يمكن أن نعتبر أنّ العلاقة بالسلطان - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- في الأندلس من أهمّ الأسباب في نكبة الأفراد. وعادة ما يكون هؤلاء الأفراد من كبار

(3) ديوان المعتمد ص 186.

(4) ديوان المعتمد ص 177.

(5) ديوان القيسي ص 198.

رجال البلاط. والأمثلة على ذلك كثيرة ففي بلاط قرطبة مثلاً، عندما قامت حكومة الجماعة بزعامة أبي الحزم بن جهور، نجد أن المشكل الرئيسي الذي يعاني منه بلاط قرطبة يتمثل في تلك العناصر المتبقية من فلول بني أمية والتي كانت تحلم دائماً بإمكانية إعادة السلطة إليهم. وقد ظهرت بوادر فتنتين قامت بهما هذه العناصر المناوئة للحكم الجمهوري واتهم في كليتهما الوزير الشاعر بن زيدون. وزج به في الأولى منها في السجن. وفي ديوانه نجد عديد القصائد التي أرسلها إلى أبي الحزم بن جهور مستعظفاً ومتبرئاً، فدوره في هذه الفتنة - كما أكد على ذلك مراراً - هو دور الذئب مع إخوة يوسف، فهو إذن مقحم فيها إقحاماً. قال (كامل) (6) :

كان الوشاة وقد منيت بإفكهم أسباط يعقوب وكنت الذيبا

وهو في نهاية الأمر بمثابة كبش الفداء، تحمل تبعة ما اقترفه غيره (بسيط) (7) :

وما للذنوب التي جاني كبائرها غيري يحملني أوزارها وزري

ومن المعلوم أنه في المجال السياسي يلعب التنافس على السلطة دوره في نكبة الأمراء والحجاب والوزراء. ونكبة الحجاب المصحفي على يد المنصور بن أبي عامر مازال يرنّ صداها في المصادر التاريخية والأدبية ، ولم يكتف المنصور بالقبض عليه بمفرده بل قبض عليه وعلى ولده وعلى آله، واستصفي أموالهم وأمعن في نكايته المصحفي واستجوابه أمام زملائه القدماء. واستطالت محنته أعواماً عاش خلالها أشد أنواع المهانة والذلّ وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه. قال مخاطباً المنصور (البسيط) (8) :

(6) ديوان ابن زيدون ص 4.

(7) ديوان ابن زيدون ص 9.

(8) ابن الجبار : الحلة المتيراء : 265/1.

هَبْنِي أَسَاتَ فَأَيْنَ الْعَفْوِ وَالْكَرَمِ
 يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ الْأَيْدِي إِيْلَيْهِ أَمَّا
 إِذْ قَادَنِي نَحْوَكِ الْإِذْعَانِ وَالنَّدَمُ؟
 تَرْتَنِي لِشَيْخِ نَعَاهِ عِنْدَكَ الْقَلَمُ
 بِالْغَتِ فِي السَّخَطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مَقْتَدِرٍ
 إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا
 فَأَجَابَهُ قَائِلًا (البسيط) (9) :

الآن يَا جَاهِلًا زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمُ
 أَغْرَيْتَ بِي مَلِكًا لَوْلَا تَثَبَّتَهُ
 تَبَغْيِي التَّكْرَمَ لِمَا فَاتَكَ الْكَرَمُ؟
 مَا جَازَ لِي عِنْدَهُ نُطْقٌ وَلَا كَلِمُ
 فَيَأْسُ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ قَدْ صَرْتُ فِي طَبَقِ
 إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَنْقَمُوا نَقَمُوا
 نَفْسِي إِذَا سَخَطْتَ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ
 وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ
 وَتَلْعَبُ الْوَشَايَةُ وَالنَّمِيمَةُ دُورًا كَبِيرًا فِي الْإِيقَاعِ بِرِجَالِ الْبِلَاطِ. وَعَادَةً مَا يَكُونُ
 الْوَاشِي وَالنَّمَامُ وَالضَّحِيَّةُ مِنْ نَفْسِ الْبِلَاطِ. وَنَكَبَةُ الْوَزِيرِ ابْنِ عَطِيَّةٍ عَلَى يَدِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
 بَنِ عَلِيٍّ بَعْدَ أَنْ أَوْغَرَ صَدْرَهُ الْوَشَاةُ عَلَيْهِ أَثْنَاءَ غِيَابِهِ بِالْأَنْدَلُسِ نُمُودَجَ خَلْدَهُ الْمَنْكُوبُ فِي
 قَطْعِ عَدِيدَةٍ مِنْ شَعْرِهِ. وَأَوَّلُ الْوَشَاةِ بِهِ لَدَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ هُوَ مَرْوَانَ بَنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ،
 وَهُوَ وَاشٍ لَنَيْمٍ لِأَنَّ ابْنَ عَطِيَّةٍ كَانَ قَدْ سَعَى لَدَى بَنِي غَانِيَةٍ فِي الْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ - وَكَانَ
 ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَعْتَقَلًا بِهَا - لِإِطْلَاقِ سِرَاحِهِ فَلَمْ يَرَاعَ هَذَا الْمَعْرُوفَ بَلْ خَاطَبَ عَبْدِ
 الْمُؤْمِنِ وَقَوَّى فِي نَفْسِهِ الْهَوَاجِسَ وَالظَّنُونِ لِحَمْلِهِ عَلَى الْبِطْشِ بِوَزِيرِهِ ابْنِ عَطِيَّةٍ
 (البسيط) (10) :

(9) ابن الأثير : الحلة المنيراء : 265/1.

(10) المقرئ : نفح الطيب : 163-4/5.

قل للإمام أطل الله مدته قولاً تبين لذي لب حقائقه
 إن الزّراجين ⁽¹¹⁾ قوم قد وترتهم وطالبُ الثّار لم تؤمن بوائقه
 وللوزير ⁽¹²⁾ إلى أرائهم ميلٌ ⁽¹³⁾ لذا ما كثرت فيهم علانقه
 فبادر الحزم في إطفاء نارهم فربّما عاق عن أمر عوائقه
 هم العدو ومن والاهم كهم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
 الله يعلم أني ناصح لكم والحق أبلج لا تخفى طرائقه

وقد يتعرّض بعض رجال البلاط إلى الابتلاء بسبب غيرة السلطان من بعض أفراد عائلته ممّن يتوقّع منافستهم له في الحكم. فقد نكب هشام بن عبد الرّحمان الدّاخل بقرطبة أبا المخشى عاصم بن يزيد ⁽¹⁴⁾ غيرة من أخيه سليمان . وطلب المنصور الموحّدي أبا عبد الله بن عباس ⁽¹⁵⁾ لأنّه من صنائع أخيه الرّشيد. وسمّ عثمان بن عبد المؤمن الكاتب أبا محمد بن عيّاš ⁽¹⁶⁾ لأنّه أرسل رسالة مدح لأخيه أبي حفص.

وقد يهزّ بعضهم الطّموح إلى السّلطة فيسعى إليها فينكب قبل الوصول إليها أو بعدها. وخير مثال على ذلك أبو الوليد محمد بن عمر المعروف بابن المنذر، فقد نكبه زميله ابن وزير بعد أن كانا يداً واحدة في الثّورة على المرابطين، ولم يكتف بسجنه بل سمل عينيه. ولئن تألّم المنكوب لفقد بصره، فقد آلمه أكثر أن رأى إخوانه يتخلّصون منه

(11) طيور ريشها أبيض وصدرها أسود: شبّه المرابطين بهذه الطيور لأنهم في نظر أعدائهم الموحّدين: هم بيض الّباس سود القلوب.

(12) يقصد ابن عطية المنكوب.

(13) الضمير في "أرائهم" يعود على المرابطين.

(14) المغرب : 123/2.

(15) المغرب : 81/2.

(16) المغرب : 225/2.

وهو في محنته. وقام بعضهم بطعنه من الخلف. قال يشكو حاله إلى صديقه أبي بكر بن المنخل (كامل) (17) :

إيه، أبا بكر، وكم من أخ	ناديتُ غيرك لم يجب لندائه
عثرت بي الدنيا فأصبح مُعرضاً	عني كأنّي لم أُن بإخائه
ومحنته وذي وصنت إخاءه	من نائبات الدهر حال بلائه
فعدا عليّ ولم أظنّ ببغيه	وأنا بحال من أمان عدائه

3- التنافس الفكري: من أخطر هذه الأسباب التنافس غير النزيه بين رجال الفكر بالأندلس. وهناك ظاهرة في المغرب بصفة عامة والأندلس بصفة خاصة هو استنفاص العلماء والأدباء لإنتاج غيرهم. وقد اشتكى ابن بسّام من هذه الظاهرة في مقدّمة كتابه الذّخيرة. ولئن كان من الطّبيعي أن تنشأ بعض الحزازات من جرّاء التنافس بين المفكرين والأدباء والعلماء، فمن المؤسف أن تتحوّل هذه الحزازات إلى حقد دفين أو عدا سافر، فتتلقّ التّهم جزافاً لإيعاز صدر صاحب السّطة وتخويفه من المستهدف. وهذا ما وقع لابن حزم -أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة - فقد شنّع عليه الفقهاء وطعنوا فيه، فقال في نكبته ممّا يدلّ على صبره ورباطة جأشه (بسيط) (18) :

لا يَشْمَتَنَّ حاسدي إن نكبةً عرضتْ	فالدهر ليس على حالٍ بمُتّركٍ
نو الفضل كالنّبر يُلقَى تحت مُترّبةٍ	طوراً وطوراً يُرى ناجاً على ملكٍ

(17) ابن الجار: الحلة : 209/2.

(18) النّج : 82/2.

وهذا ما فعله الفقهاء في العهد الموحدى مع ابن رشد أكبر فيلسوف عرفته القرون الوسطى حتى نكبه الخليفة المنصور الموحدى.

4- أسباب شخصية : وهذه متعددة الجوانب كالتنافس في حب امرأة، فقد نكب أبو جعفر بن سعيد لمزاحمته أبا سعيد بن عبد المؤمن في حب حفصة الشاعرة. وكان كل منهما في حبها على مثل الرقض للآخر، ووجد حساد أبي جعفر السبيل إلى إغراء أبي سعيد به "فكان ممّا نمي به عنه أن قال لحفصة يوما "وما هذا الغرام الشديد به، يعني السيد أبا سعيد - وكان شديد الأذمة - وأنا أقدر أن أشتري لك من الغرض أسودًا خيرا منه بعشرين دينارًا. فجعل السيد يتوسّد له المهالك"⁽¹⁹⁾ إلى أن قتله. أو كالغزل بامرأة من أقرباء السلطان، فقد قتل الوشاح ابن النغزلة بأخت عبد المؤمن بن علي في موشحه المشهور المعروف بالعروس . ومطلعه ⁽²⁰⁾ :

من يصيدُ صيدًا فليكن كما صيدي
صيدي الغزالة من مراتع الأسد

أو كارتكاب جناية، فقد امتحن الشاعر الطليق المرواني لأنه قتل والده الذي زاحمه في حبّ جارية ⁽²¹⁾، وسجن أبو عبد الله محمد بن مسعود لوهن في دينه ⁽²²⁾، واعتقل الشاعر يحيى بن حكم الغزال لاستيلائه على مال الأعشار ⁽²³⁾.

II- أنواع المحن :

(19) النّفع : 224/1.

(20) الزّجل في الأندلس للأهواني ص 112.

(21) النّفع : 220/2.

(22) النّفع : 388/3.

(23) النّفع : 9/3 - المطرب 133.

يمكن ترتيب هذه المحن من حيث قسوتها وهولها وشناعتها إلى :

1- غضب السكطان وجفوته :

وهذه محنة باعتبار ما سيعيشه المغضوب عليه من قلق وحيرة وخوف. فهو يتوقع دائما أن يتحول الغضب إلى سخط ومنه إلى عقاب. ويولد هذا الانتظار لدى النفوس الحساسة كنفوس الشعراء عذابا نفسيا قد يكون أشد من عذاب الجسد. ولقد عاش ابن الأبرار البنلسي حالة القلق هذه عندما غضب عليه أبو زكرياء الحفصي ثم ابنه المستنصر وألف في الموضوع كتاب "إعتاب الكتاب" في محاولة منه لإرضاء أبي زكرياء. وعاش نفس الحالة تقريبا الشاعر ابن اللبانة عندما غضب عليه ناصر الدولة صاحب ميورقة بالجزائر الشرقية. وقد تؤدي هذه الحالة بالمرء إلى أن ينشد راحة البال واطمئنان النفس في حياة بسيطة هادئة، ولو كان ذلك على حساب ما اكتسبه من جاه ومال. قال أبو جعفر بن سعيد وهو يتوقع كل الشر من السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن (كامل) (24) :

من يشتري مني الحياة وطيبها	ووزارتي وتأديني وتهذي
بمحل راعٍ في نرى ملمومة	زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
لا حكم يأخذ بها إلا لمن	يعفو ويرؤف دائما بالمذنب
فقد سئمت من الحياة مع امرئ	متغضب متغلب مترتب
الموت يلحظني إذا لاحظته (25)	ويقوم في فكري أوان تجنبي
لا أهتدي مع طول ما حاولته	لرضاه في الدنيا ولا للمهرب

(24) النفع : 225/1.

(25) الضمير يعود على الأمير الموحدي أبي سعيد عن الشاعر .

وقد يضطرّ المغضوب عليه إلى الاختفاء إذا طلبه السلطان، لأنّه أصبح متيقّناً أنّه سيتعرّض إلى العقاب لا محالة. وهذا ما فعله أبو عبد الله محمد بن عيَّاش عندما طلبه المنصور الموحدّي لأشياء إلاّ لأنّه من أصحاب أخيه الرّشيد الذي قتله. وإذا كان ابن سعيد قد جنّى على نفسه بما قاله في تحقير الأمير الموحدّي، فإنّ ابن عيَّاش شعر بأنّه مظلوم فقال (كامل) (26) :

بئس الحياة لخائف مرقّب لم يلفّ في تخليصه من مذهب
قد غلّقت أبواب كلّ شفاعاة في وجهه جوراً ولمّا يذنب
ما ذنب من وفّى بخدمة من به عرف النّعيم وذاق عذب المشرب (27)
ياشمسُ قد أثرت في بدر الدّجى وخسفته لا تحفلن بكوكب (28)

وقد اضطرّ كذلك ابن زيدون إلى الفرار من السّجن والاختفاء بعد أن يؤس من عفو ابن جهور عنه. وذهبت قصائده في الاستعطاف والاسترضاء سدّى.

ويتحوّل غضب السلطان أحيانا إلى عزل المغضوب عليه وتصفية ماله ومصادرته دون كشف حاله. وهذا ما فعله المنصور الموحدّي مع الوزير أبي سليمان داود بن داود بعد سعي الوشاة به لديه. وقد يتجسّم هذا الغضب في تغريب المنكوب عن وطنه. وهذا ما فعله الحكم الرّبضي مع بعض فقهاء قرطبة عندما ثاروا عليه في بداية القرن 9/3. فمنهم من شرّدهم في بلاد الأندلس ومنهم من أخرجهم نهائياً منها.

2- السّجن :

(26) المغرب : 81/2.

(27) يشير الشّاعر إلى خدمته لدى الأمير الموحدّي الرّشيد.

(28) يشبه الشّاعر المنصور بالشمس والرّشيد بالبدر ونفسه بالكوكب.

يعتبر السّجن المحنة الأكثر انتشاراً بالأندلس. والسّجن أنواع أشدها وطأة على السّجين المطبق: وهو عبارة عن دهليز تحت الأرض يعيش فيه الأسير أو السّجين في ظلام دامس لا يفرّق بين ليله ونهاره. وقد يكون فيه مقيد بالقيود والأغلال. ولنا في الشّعر الأندلسي روائع في وصف السّجين المقيد الرّأسف في الأغلال. قال القيسي واصفاً حاله وهو سجين بأبرة (الكامل) (29) :

في دار كُفر أظلمت أرجاؤه	حتّى تبدّت للعيان ظلاما
في قعر بيت غولّه مجموعة	والهامّ فيه قد أجاب الهاما
مالي به أنس سوى تذكاركم	ومدامح حمر تفيض سجاما
وبجامع جمعت يداي وقُرْمَة	منعت قيامي إن أردت قياما ⁽³⁰⁾
والشّبّ والإبريق كلّ منهما	نُصّبَ العيان بجانبه قد قاما ⁽³¹⁾

ومن سلبيات التّاريخ العربي الإسلامي القيام بسمل عيني السّجين أو قطع لسانه. وهذه الطّريقة أصبحت من التّقاليد السياسيّة للتّخلّص من المنافس. أو على الأقلّ الحدّ من خطورته بقطع الطّريق أمامه لطلب السّلطة أو السّعي إليها مرّة ثانية. وهذا ما فعله ابن وزير مع صديقه ابن المنذر بغرب الأندلس أثناء ثورة المرينيين على المرابطين. وقد يكون الأمر مجرد رغبة في التّشفيّ صادرة عن نفس حاقدة غيورة. فهذا هشام بن عبد الرّحمان الدّاخل يقطع لسان الشّاعر أبي المخشى عاصم بن زياد ويسمل عينه لأنّه مدح أخاه سليمان، وكانت بينهما جفوة⁽³²⁾. ولا تتورّع السّلطة المرابطيّة من سمل

(29) ديوان عبد الكريم القيسي ص 3-102.

(30) الجامع : علّ يشدّ الأيدي إلى الرّقبة . والقُرْمَة: أغلال يُجمل فيها الرّجل والعنق (المصدر السابق تعليق 2)

(31) الشّبّ : خشبتان تشدّ بهما ساقا الأسير. والإبريق هو الشّبّ. (المصدر السابق).

(32) المغرب : 123/2.

عيني امرأة ناسكة رفضت الكشف عن أسرار المريدين من رفقاتها أثناء ثورتهم عليها بالأندلس (33).

ولقد كان الشعر دوما أداة ووسيلة لدى الأسير أو السجين في محاولاته للخلاص من محنته. فقيلت قصائد الاسترضاء والاستعطاف لصاحب السلطة والنّفوذ أو لذوي الجاه والمال، وفيها تصوير لنماذج من نفوس إنسانية معذبة تعيش - بعد أن فقدت حريتها وكرامتها - بين ألم الواقع وأمل الخلاص. قال الوزير ابن عطية يستعطف عبد المؤمن بن علي (طويل) (34) :

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا	بحمل قلوب هدها الخفقان
وكتب له مع ابن له صغير (بسيط) (35) :	
عظفا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البثّ والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلّها لجح	وعطفة منكم أنجى من السّفن
وصادفتنا سهام كلّها غرض	ورحمة منكم أوقى من الجنن

وتجد هذه القصائد أحيانا صدى في نفس مخاطبها فيصدر العفو أو يتمّ الفداء فتتجلى الغمة وينزاح الكابوس، ويتحوّل الاستعطاف مدحا وثناءا والاسترضاء تنويها وشكرا، قال ابن الأبار وقد جاءت البشري بعفو السلطان الحفصي عليه (مخلع البسيط) (36) :

قابليت نعماك بالسّجود	لله من عطفة وجود
ولم أجد للحياة عدما	وفي وجود الرّضى وجودي
قد وصل الأمن والأمانى	بعد المضادة والصّدود

(33) د. عصمت نكش : الأندلس في نهاية المرابطين ص 61 ت 77.

(34) الإحاطة : 276/1.

(35) النّفح : 185/5.

(36) إعتاب الكتاب : ص 259.

يا مُبدئاً في العلا مُعيداً أيّدتَ بالمُبدئِ المُعيدِ
بأيّ حمد وإنّ تناهى أثني على صنعك الحميدِ
صفحت عمداً عن الخطايا وتلك من عادة العميدِ

وهناك أمثلة متعدّدة في التّاريخ الأندلسي يحلّ فيها محلّ غضب السّلطان رضاه فيسعف السّجين بالسّراح. فقد عفا المنصور بن أبي عامر على الطّليق المرواني وأخرجه من سجنه، وعفا عبد المؤمن بن علي على عبد الملك بن سعيد وأمر بتسريحه بكرة فقال ابنه أبو جعفر وقد التقى به وجها لوجه (طويل) (37) :

طلعت علينا كالغزالة بالضّحى وعزّك طمّاحٌ ووجهك مشرقٌ
فغفرا لذنّب الذّهر أجمع إنّهُ أتى اليوم من حسناه ما هو أليق

3- القتل :

وقد تتحوّل المحنة من السّجن والأسر إلى ما هو أشدّ وأنكى وذلك عندما تصول النّفس الحاقدة وتجول، فيختفي كلّ إحساس بالرّحمة أو شعور بالشفقة. فلا يخرج السّجين من سجنه إلّا بعد أن تفيض روحه أو تخمد أنفاسه. فالتّعذيب قد يؤدّي إلى الموت كما وقع ليحيى البرغواطي الزّاهد، فقد أدّى به "تسوّر حمى السياسة إلى مصرع السّوء، فجلد جلداً عنيفاً بين يدي السّلطان، كان سبب وفاته في المطبق" (38). وطول سجن المنكوب مع كبر سنّه قد يؤدّي إلى حلول أجله كما وقع للحاجب جعفر المصحفي. وقد يقتل خنقا كما كانت نهاية ابن الخطيب، أو قُعصا بالرّماح كما فعلَ بابين الأبار. أمّا عادة دسّ السمّ في المأكّل والمشرب فعادة معروفة كما وقع للكاتب أبي محمد عبد الغني

(37) النّسخ : 191/4.

(38) الإحاطة : 427/4.

بن طاهر مع عثمان بن عبد المؤمن⁽³⁹⁾. كما جرت العادة بقطع رأس المنكوب بالسيف أو شقه بطبرزين كما فعل المعتمد بن عباد بشاعره محمد بن عمار.

4- التمثيل :

وقد تتعدم إنسانية الإنسان في معاملته لأخيه الإنسان فلا تكتفي النفس البشرية الحاقدة بموت المنكوب، فتمثل بجثته فيتم صلبها. والصلب ظاهرة لئن كانت سلبية، إلا أنها - مع الأسف - ظاهرة معتادة في كامل التاريخ العربي الإسلامي. ولم يتورع عنها حكام العرب مشرقا ومغربا. وعادة ما تُصلب الرؤوس أو الأجسام على أسوار المدن أو على أبوابها أو في أعلى جذوع النخل. قال أبو العباس الجراوي في الصابوني الثائر وقد صلب (كامل)⁽⁴⁰⁾ :

إنّي لأعجب من خساسة عقله نسي الذنوب فخانَه الغفرانُ
وغدا على مشروعة رهن الردى فالجوّ قبرٌ والهوا أكفانُ

وقد تحرق جثة المنكوب أو بعضها، وتترك في العراء دون دفن كالبهيمة العجماء. وهذا كان مصير أعظم رجل عرفته الثقافة العربية بالأندلس في العهد الغرناطي، إنه ابن الخطيب الذي خُنق في سجنه وعبثت الأيدي الأثمة بجثته حرقا قبل دفنه. وكذلك مصير أكبر متصوّف عالم عرفته الأندلس في القرن 12/6، إنه ابن بُرجان الذي أمر عليّ ابن يوسف ابن تاشفين - مع تقواه - أن يُترك في العراء - بعد موته - دون دفن.

والغريب أنّ بعضهم يجد في روائح الأجسام المتعفنة طيبا عطرا يحلو له استنشاقه، ومنظرا بهيا يحلو له رؤيته كالمعتضد بن عباد مع رؤوس أعدائه في إشبيلية وقد

(39) المغرب : 225/2.

(40) زاد المسافر: ص 49.

غرسها في حديقته. وكالمأمون الموحدي مع شيوخ الموحدين الذين بايعوه ثم نكثوا ببيعته فصلبهم على الأشجار والأسوار وامتّع نظره برؤيتهم أيّاماً وشهوراً، وقال متشفيّاً (كامل) (41) :

أهل الحِرابَة والفساد من الوري	يُغزُون في التَّشبيهِ بالذَّكَار
ففساده فيه الصَّلاح لغيره	بالقطع والتعليق في الأشجار
نكَارُهُم ذِكْرِي إذا ما أبصروا	فوق الجذوع وفي ذرى الأسفار
لو عمّ عفواً الله سائر خلقه	ما كان أكثرهم من أهل النار

5- حرق الكتب :

مهما كان التعذيب مؤلماً والقتل قاسياً والتّمثيل شنيعاً، فإنّها كلّها تصيب الفرد من الأمّة أو الجماعة منها. أمّا حرق الكتب فهو نكبة الأمّة بأسرها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لأنّها عمليّة إيقاف لنموّ العقل وبالتالي للتّطوّر الفكري والحضاري، لهذا تعتبر الجريمة الكبرى ضدّ الإنسانيّة قاطبة.

وفي الأندلس تعرّض العقل البشري للمصادرة وتعرّض إنتاجه إلى الإتلاف. كان ذلك عندما تتواطأ السلطان الروحيّة والزمنيّة فتحاول كلّ منهما مجارات الأخرى ومُدارتها خدمة لمصالحها : فالأولى تقف في وجه كلّ خارج عن السلطان - وإن كان جائراً - باعتبار أنّ القيام بذلك قولاً أو فعلاً فتنة. والفتنة أشدّ من الكفر. ومقابل ذلك تقوم الثّانية إرضاء للأولى باتّهام كلّ من يعارضها أو يكشف عوراتها بالزندقة. والزندقة هي الكفر بعينه.

وفي هذه الأجواء المخنقة لا يبرز على السّطح إلّا من مرضت نفسه ومات ضميره، وفسدت نيّته وجمد عقله، وانقطع عمله وانعدم نفعه. ومقابل ذلك تكثّر مطالبه التي هي

إلى الشهوات أشبه، ويشتدّ طموحه الذي هو إلى التّكالب أقرب. وشعارهم جميعاً بذل المجهود الأدنى للحصول على النّفع الأكبر.

هذا ما وقع - مع الأسف - في فترات الانحدار إلى الهاوية في بلاد الأندلس. فقد أصبح فيها الدّين وسيلة والسياسة نفاقاً. وبات الحقّ مهدوراً والعمل ممجوجاً. وأضحى المجد ممقوتاً والمجتهد مرفوضاً. وراجت سوق النّفاق والرّياء، فكثر السّعاية واتّسع مجالها. وازدهرت النّميّة وفتحت أبوابها. وفوق المنافقون من أدعياء الفكر سهامهم نحو إنتاج العقول النّيرة فأصبح مستهدفاً لأنّه يفصح زيغهم ويكشف خداعهم ويشنّع بأهوائهم. فعمدوا نكاية وتشفيّاً إلى الدّسائس يحيكونها وحفلات العزل والحرق يقيمونها قرباناً لشهواتهم فأشعلوا النّار المحرقة لإطفاء نور المعرفة، وأجّجوا نار الحقد لإخماد نور العقل. وهكذا أحرقت كتب ابن حزم إفكاً، ومصنّف الإحياء للغزالي بهتاناً، ومؤلّفات ابن رشد زوراً، ألم يُشهر ابن حزم في وجههم - وهم الكسالى عقلاً وجسماً - سيف الاجتهاد الذي لا ينبو؟ ورشقهم الغزالي - وهم المخادعون قولاً وفعلًا - بسهم الإيمان الذي لا ينكسر؟ ورامهم ابن رشد - وهم الجامدون فكراً وإحساساً - بنبل الحقيقة الذي لا يزيغ؟ ومن العجب أن احترق الحارق فكان وهما وسراباً، وبقي المحروق فأضحى جوهرًا ولباباً. وهذا سرّ من أسرار أفول الأندلس سياسياً واجتماعياً وبقائها - نسيّاً - حضاريّاً وفكريّاً. وهو سرّ قد لا نكون فهمناه - نحن العرب - إلى اليوم.

IV- محنة ابن رشد :

يمكن أن نعتبر محنة ابن رشد نموذجاً لمحنة كلّ العلماء ببلاد الأندلس عبر مختلف العصور التي مرّت بها. وليس غایتنا في هذا المقام تفصيل القول في أسباب هذه المحنة ونتائجها. وإنّما هدفنا هو التأكيد على أنّ السّعاية بالمرء والتّشنيع عليه، وتأويل أقواله وأفعاله للنّيل منه كانت ومازالت الوسيلة الفعّالة والأداة المحبّذة في يد أصحاب النفوس

المریضة إذا وجدت - وقد لُبِّست الحقيقة بكثير من الزور والعار - تجاوبا مع صاحب السلطة والقرار.

ولیس أفضل من الاعتماد على مصدرین أساسیین تعرضا لمحنة ابن رشد لنقدّم رواية عنها مختصرة ولكنّها معبّرة . هذان المصدران هما "سيرة ابن رشد" للأنصاري (مخطوط) و "عيون الأنباء" لابن أبي أصيبعة (مطبوع).

قال الأنصاري: "لَمَّا كَانَ التَّلَوُّمُ⁽⁴²⁾ مِنَ الْمَنْصُورِ بِمَدِينَةِ قَرْطَبَةِ وَامْتَدَّ بِهَا أَمَدُ الْمَقَامِ، وَانْبَسَطَ النَّاسُ لِمَجَالِسِ الْمَذَاكِرَةِ، تَجَدَّدَتْ لِلطَّالِبِينَ آفَاتُهُمْ⁽⁴³⁾، وَقَوِيَ تَأَلُّبُهُمْ وَاسْتِرْسَالُهُمْ، فَادَّلَوْا بِتِلْكَ الْأَلْقِيَاءِ وَأَوْضَحُوا مَا ارْتَقَبُوا فِيهِ مِنْ شَنِيعِ السَّوْءَاتِ الْمَاحِيَةِ لِأَبِي الْوَلِيدِ كَثِيرٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ. فَقَرَّئَتْ وَتَدَاوَلَتْ أَغْرَاضُهَا وَمَعَانِيهَا وَقَوَاعِدُهَا وَمَبَانِيهَا، فَخَرَجَتْ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَسْوَأَ مَخْرَجٍ. وَرَبَّمَا ذَلِيلُهَا مَكْرَ الطَّالِبِينَ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْمَلَأِ إِلَّا الْمَدَافَعَةُ عَنِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ آثَرَ الْخَلِيفَةُ فَضِيلَةَ الْإِبْقَاءِ، وَأَعْمَدَ السَّيْفَ التَّمَاسُ جَزِيلَ الْجَزَاءِ، وَأَمَرَ طَلَبَةَ مَجْلِسِهِ وَفَقَهَاءَ دَوْلَتِهِ بِالْحُضُورِ بِجَامِعِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَعْرِيفِ الْمَلَأِ بِأَنَّهُ مَرَقٌ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّهُ اسْتَوْجِبَ لَعْنَةَ الضَّالِّينَ. وَأُضِيفَ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَصُولِيِّ فِي هَذَا الْإِزْدِحَامِ⁽⁴⁴⁾، وَلُفَّ مَعَهُ فِي حَرِيقِ هَذَا الْمَلَامِ لِأَشْيَاءٍ أَيْضًا نُقِمَتْ عَلَيْهِ فِي مَجَالِسِ الْمَذَاكِرَةِ، وَفِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ مَعَ تَوَالِي الْأَيَّامِ... " (45).

ولئن كنّا ننزّه أن يكون علماء قرطبة الأفاضل قد شاركوا في مقاضاة الشّارح الأكبر، فإنّ من سَعَوْا به وشنّعوا عليه قاموا بمحاكمته زورًا، ونال ابن رشد ورفقائه في

(42) تَلَوُّمٌ عَلَى الْأَمْرِ : تَلَيُّثٌ. وَهَذَا بِمَعْنَى أَقَامَ وَلَبِثَ.

(43) الطَّالِبُونَ : الْمَقْصُودُ بِالطَّالِبِينَ الْمَنَافِينَ لِابْنِ رَشْدٍ وَالتَّاعِينَ لِنَكْبَتِهِ. فَقَدْ سَكَنُوا حِينَئِذٍ أَعَادُوا الْكُرَّةَ بَعْدَ أَنْ أَطَالَ الْمَنْصُورُ الْمُوَحْدِي إِقَامَتَهُ فِي قَرْطَبَةِ.

(44) وَكَانَ مَعَ ابْنِ رَشْدٍ فِي نَكْبَتِهِ زِيَادَةُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَصُولِيِّ، أَبُو الرَّيْبِيعِ الْكَفِيفِ، وَأَبُو الْعَبَّاسِ الْحَافِظُ، وَالشَّاعِرُ الْقَرَابِيُّ (ابْنُ أَبِي أَصِيبَعَةَ ص 532).

(45) أَرْنِسْت رَيْنَان: ابْنُ رَشْدٍ وَالرَّشْدِيَّةُ. تَرْجَمَةُ عَادِلِ زَعِيْر ط. الْقَاهِرَةُ 1957 ص 438 - 444.

هذه المحاكمة المغرضة "ماشاء الله من الجفأ، وتفرقوا على حكم من يعلم السرّ وأخفى . ثمّ أمر أبو الوليد بسكنى أليسانة لقول من قال: إنّه يُنسب في بني إسرائيل وأنّه لا تُعرف له نسبة في قبائل الأندلس" (46).

وذكر الأنصاري أسبابا خفيّة لنكبة ابن رشد، هي في نظرنا أسباب ثانويّة بالنسبة إلى ما ذكر آنفا. قال "ويذكر أنّ من أسباب نكبته هذه اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور، والي قرطبة (47)". وأورد ابن أبي صبيعة أسبابا أخرى قال: "ومما كان في قلب المنصور من ابن رشد أنّه كان متى حضر مجلس المنصور، وتكلّم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بأن يقول : تسمع يا أخي. وأيضا فإنّ ابن رشد كان قد صنّف كتابا في الحيوان، وذكر فيه أنواع الحيوان، ونعت كلّ واحد منها. فلما ذكر الزرّافة وصفها ثمّ قال : لقد رأيت الزرّافة عند ملك البربر، يعني المنصور. فلما بلغ ذلك المنصور صغّب عليه. وكان أحد الأسباب الموجبة في أنّه نقم على ابن رشد وأبعده" (48).

ولئن سعت قرطبة بابن رشد ونجحت، فقد عملت إشبيلية على تخليصه ووصلت. قال ابن أبي أصيبعة : "وبقوا (أي ابن رشد ورفقائه) مدة (في منقاهم). ثمّ إنّ جماعة من الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنّه على غير ما نسب إليه، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة وذلك في سنة 595/1198 " (49).

(46) المرجع السابق.

(47) المرجع السابق.

(48) المرجع السابق.

(49) عيون الأنباء ص 532.

ولئن استتقص المنافقون ابن رشد ورفيقه أبا عبد الله فلعنوهما وتقلوا في وجهيهما وأحرقوا كُتُبهما، فقد أنصفهما التاريخ قديما وحديثا، قال الأنصاري : "وليس في زمانهما من بكمالهما، ولا من نسج على منوالهما" (50).

إنّ هذا الحكم الذي لا رجوع فيه هو حكم لابن رشد ولرفيقه ولكل علماء الأندلس ممّن امتحنوا ظلما وعدوانا. وهو شهادة فخر وإكبار على صدر العاملين الكادحين، وشهادة خزي وعار على جبين التافهين المزيفين.

(50) ابن رشد والرشدية ص 438.